عروبة القدس في ضوء الحقائق التاريخية

د. يوسف غوانمة
الأستاذ المشارك ورئيس قسم التاريخ
بجامعة اليرموك ـ الأردن

بيت المقدس تعني المكان المطهر من الذنوب، واشتقاقه من القدس وهي الطهارة والبركة، فبيت المقدس إذن هو المكان الذي يتطهر فيه من الذنوب[١].

والقدس مدينة عربية، بناها اليبوسيون الذين هم بطن من الكنعانيين[٢]، وسموها (أورسالم) و (شاليم)، وعرفت في النقوش الفرعونية في حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد باسم (أوشاميم)[٣] Aushamem، ثم تطور الاسم إلى (اروشليم). وعندما قدم العبرانيون إلى أرض فلسطين في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، كانت (أورسالم) أو (أورشليم) الكنعانية موجودة قبل ذلك بقرون عديدة. وقد حاول العبرانيون السيطرة عليها ولكنهم فشلوا، وبقي الأمر كذلك حتى عهد الملك داود فانتزعها من اليبوسيين سنة ٩٩٦ ق. م.، وجعلها عاصمة لدولته، وصار يطلق عليها اسم (هيروسليما). Hieroselyma[٤]. ومن هذا الاسم اشتق الاوروبيون اسم (جيروسالم) Jerusalem. ثم ان الدولة العبرية انقسمت إلى مملكتين عام ٩٢٣ ق. م. يهوذا واسرائيل، ولم يدم ذلك طويلا فمملكة اسرائيل انتهت على يد سرجون الأول الاشوري عام ٧٢٢ ق. م، أما مملكة يهوذا فزالت عام ٥٨٦ ق. م. على يد نبوخذ نصر البابلي[٥].

ومما تجدر ملاحظته أن العبرانيين عندما قدموا أرض فلسطين وجدوا أهلها الكنعانيين على درجة من التقدم الحضاري، فأخذوا أبجديتهم ولغتهم وانصهروا في بوتقة الحضارة الكنعانية من حيث العادات والتقاليد والعمارة. ويؤكد علماء الفيلولوجيا أن أسماء الطبوغرافية الشامية سامية بحتة، أمورية وكنعانية، وفينيقية وارامية وجذورها مشتركة[٦].

(١) ابن الجوزي، فضائل القدس، تحقيق جبرائيل جبور، بيروت، ١٩٧٩، ص ٦٧.

(٢) اليبوسيون هم قبيلة يبوس التي انحدرت من الكنعانية، والكنعانيون ساميون نزحوا من الجزيرة العربية (عبد الحميد زايد، القدس الخالدة، القاهرة، ١٩٧٤ م، ص ٣٩).

(٣) عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ٤١.

(٤) William of Type, Ahistory of deads done beyond the Sea, Vol. I. p. 341

(٥) عبد الحميد زايد، المرجع نفسه، ص ٦٦، ٨٢، ٩٦.

(٦) أنيس فريحة، أسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسيرها، بيروت، ١٩٥٦ XL 11

وبعد سنة ٣٣٣ ق. م. دخلت بلاد الشام تحت حكم الاسكندر المقدوني، وانقسمت امبراطوريته بعد وفاته بين قواده، وكانت بلاد الشام من نصيب سلوقسي Selecus، ومصر من نصيب بطليموس Ptolemy. ولكن بطليموس ضم جنوب الشام إليه، فأصبحت أورشليم تحت سلطان البطالمة في مصر. ولكن انطيوخس الثالث السلوفي Antiochus III تمكن من الانتصار على البطالمة وأعاد جنوب الشام إلى دولته، فدخلت اورشليم سنة ١٩٨ ق. م. تحت حكم السلوقيين[٧]. ثم جاء انطيوخس الرابع Anthiochus IV فثار اليهود عليه، فاجتاح انطيوخس الرابع أورشليم سنة ١٦٩ ق. م. وأباحها لجنوده، وأمر بإلغاء الديانة اليهودية[٨]. وفي فترة الضعف التي أصابت السلوقيين تمكن المكابيون من السيطرة على أورشليم وهزيمة السلوقيين، مما اضطرهم إلى الاعتراف بسلطان المكابيين الذين منحوهم نوعا من الاستقلال سنة ١٤١ ق. م.[٩]. وبقي الأمر كذلك حتى جاء الرومان بقيادة بومبي سنة ٦٣ ق. م. فأنهوا حكم المكابيين من أورشليم سنة ٣٧ ق. م.[١٠].

ثم إن اليهود ثاروا على الرومان سنة ٦٦ م، فعهد الامبراطور فسبسيان إلى ابنه تيطس Titus إخماد الثورة، فاحتل تيطس اورشليم بعد حصار دام خمسة أشهر، وهدم المدينة وأحرق المعبد[١١]. ولكي يحكم الرومان سيطرتهم على أورشليم رابط الفيلق الروماني العاشر قربها، وبذلك أنهى تيطس الوجود اليهودي من القدس. ثم إن الامبراطور الروماني هدريان أعاد بناء اورشليم وغير اسمها إلى (ايليا كابتولينا) Aelia Captolina[١٢]، وحرم على اليهود دخولها، وتردد ذكر (ايليا) في المصادر العربية بعد الفتوحات العربية الاسلامية.

وبعد ظهور المسيحية قاوم اليهود الدين الجديد. ثم اعترفت الدولة الرومانية بالدين الجديد على يد الامبراطور قسطنطين الذي اعتنق المسيحية عام ٣١٢ م[١٣]. عندئذ قامت والدته القديسة هيلانة Helena بزيارة (ايليا) وأمرت ببناء كنيسة القيامة وكنيسة المهد في بيت لحم[١٤].

أصبح عدد اليهود في فلسطين في العصر البيزنطي ضئيلا، ومع ذلك حاولوا الثورة على البيزنطيين الذين كانوا يتصدون لهم ويخمدون تمردهم بعنف وشدة. ففي عهد الامبراطور جستنيان ثار السامرة في نابلس سنة ٥٢٩ م، فعهد الامبراطور إلى الحارث الثاني الغساني مهمة إخمادها. وفي فترة الصراع الفارسي البيزنطي حاول اليهود التسلل إلى (ايليا) والسيطرة عليها، فقدموا المساعدة للفرس أثناء تقدمهم في البلاد سنة ٦١٤ م[١٥] ولكن الامبراطور هرقل تمكن من الانتصار على الفرس سنة ٦٢٨ م، وأعاد الصليب المقدس إلى (ايليا) سنة ٦٢٩ م. وعندئذ انتقم من اليهود وأنزل فيهم العقاب لخيانتهم وتعاونهم مع الفرس، فاضطر بعضهم إلى اعتناق الديانة المسيحية، ولجأ اخرون إلى أماكن منعزلة فخلت (ايليا) والحالة هذه امن اليهود[١٦]، وبقي الآمر كذلك حتى الفتح العربي الاسلامي.

---

(٧) ايدرس بل، مصر من الاسكندر حتى الفتح العربي، دار النهضة، بيروت ١٩٧٢ م ص ٨٣.

(٨) Todd, The Ancient world, p. 296, 297

(٩) Ibid, P. 305

(١٠) عبد الحميد زايد، المرجع نفسه، ص ١١٤.

(١١) William of Type, of. cit. vol. 1, P. 341

(١٢) Ibid, P. 341

(١٣) ايدرس بل، مصر من الاسكندر الأكبر، ص ١٦٠.

(١٤) عبد الحميد زايد، المرجع نفسه، ١٥٩

(١٥) ايدرس بل، المرجع نفسه، ص ١٩٢.

(١٦) ايدرس بل، المرجع نفسه، ص ١٩٣، عبد الحميد زايد، المرجع نفسه، ص ١٦٧.

فتحت (ايليا) على يد أبي عبيدة الجراح سنة ١٧ هـ (٦٤٨ م)[١٧] بعد أن قدم الخليفة عمر بن الخطاب وتسلم المدينة من أهلها ومنحهم العهدة العمرية. ومن الملاحظ أن عرب الحجاز كانوا يطلقون على ايليا اسم «بيت القدس» أو البيت المقدس الذي جاء اشتقاقه من «القدس» بمعنى الطهارة والبركة ومنذ ذلك الحين غلب هذا الاسم على المدينة المقدسة.

وللقدس مكانة خاصة لدى المسلمين وعرب الجزيرة العربية حتى قبل الفتوحات الاسلامية لبلاد الشام، فالرسول (ص) عرج إلى السماء من بيت المقدس، وكانت القبلة الأولى للمسلمين. وفي الفتح الاسلامي قدم الخليفة عمر بن الخطاب بنفسه إلى الشام ليتسلم القدس من أصحابها النصارى. ونصت وثيقة الأمان (العهد العمري)، أنه أعطاهم «أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم مقيمها وبريها وساير ملتها أنها لا تسكن كنايسهم ولا تهدم، ولا ينقص منها ولا من صلبانهم ولا شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم»[١٨]. ونص كتاب الأمان صراحة واشترط ألا يسكن في القدس «اليهود»[١٩]، وكان ذلك بناء على طلب (صفرونيوس) الذي منعهم من السكنى في المدينة المقدسة[٢٠].

وبقي الاهتمام قائما بالمدينة المقدسة في العصر الأموي، فعمد عبد الملك بن مروان سنة ٧٢ هـ (٦٩١ م) إلى بناء المسجد الأقصى وقبة الصخرة كي تكون «مكرمة له ولمن مضى من سلفه»[٢١]. واستمر هذا الاهتمام بالمدينة المقدسة في العصر العباسي، فأعاد الخلفاء العباسيون بناء ما هدمته الزلازل من المسجد الأقصى وقبة الصخرة، نذكر من هؤلاء : أبا جعفر المنصور والخليفة المهدي الذي زار المسجد الأقصى ورعاه بعنايته[٢٢]. أما المأمون فقد رمّم قبة الصخرة سنة ٢١٦ هـ (٨٣١ م)، وأثبت ذلك في نقش محفور على أطباق البرنز الملصقة فوق الأبواب الأربعة العليا الخارجية للقبة، وذكر في النقش أيضا اسم الخليفة المعتصم أخ المأمون، ونعت بأبي اسحق[٢٣].

وعندما دخلت المدينة المقدسة تحت النفوذ الفاطمي أولاها الفاطميون بعض عنايتهم، فرمموا المسجد الأقصى وأسواره، وقبة الصخرة، وذلك في عهد الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله. وهناك نقش على إحدى الدعامات الكائنة في إطار القبة يحمل تاريخ ٤١٣ هـ (١٠٢٢ م)[٢٤]. وذكر ناصر خسرو أن الفاطميين أهدوا الصخرة والمسجد الأقصى قناديل الفضة[٢٥].

وفي أواخر العصر الفاطمي تعرضت المدينة المقدسة إلى محنة الاحتلال الفرنجي سنة ٤٩٢ هـ (١٠٩٩ م) فأساؤوا إلى الأماكن الاسلامية المقدسة وكونوا مملكة بيت المقدس اللاتينية[٢٦]. وفي العصر الأيوبي حرر صلاح الدين القدس من الفرنج سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م)، فحصنها وجدد

---

(١٧) البلاذري، فتوح البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨ م ص ١٤٤.

(١٨) المنهاجي السيوطي، إتحاف الاخصا بفضائل المسجد الاقصى، مخطوط جامعة برنستون لوحة ٥٦ ب.

(١٩) المنهاجي السيوطي، المصدر السابق، لوحة ٥٦ ب، ومحمد حميد الله، الحيدر رابادي مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة ص ٢٦٩.

(٢٠) عبد الحميد زايد، القدس الخالدة، ص ١٧٨.

(٢١) المنهاجي السيوطي، المرجع نفسه، لوحة ٦٠ ب.

(٢٢) المنهاجي السيوطي، المرجع نفسه، لوحة ٦٢ أ.

(٢٣) لي سترانج، فلسطين في العهد الاسلامي، ص ١٢٧، عبد الحميد زايد، المرجع نفسه، ص ١٩٤.

(٢٤) لي سترانج، المرجع السابق، ص ١٣١، عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ١٩٨.

(٢٥) لي سرانج، المرجع نفسه، ص ١١٤، عبد الحميد زايد، المرجع نفسه، ص ١٩٩.

(٢٦) يوسف غوانمة، دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين في العصر الاسلامي، عمان، ١٩٨٣ م، ص ١٨٠ ـ ١٨٢.

أبراجها وقوى أسوارها(٢٧)، ثم عمد إلى المسجد الآقصى وقبة الصخرة فجدد عمارتهما(٢٨)، ثم بنى فيها مدرسة للشافعية ورباطا للصوفية، والخانقاه الصلاحية، والبيمارستان الصلاحي، وأوقف عليها أوقافا عديدة(٢٩). وأنشأ الملك المعظم عيسى صاحب دمشق المدرسة المعظمية لتدريس المذهب الحنفي، وبنى القبة النحوية بصحن الصخرة لتدريس علوم اللغة العربية(٣٠)، وجدد الآبواب الخشبية للمسجد الآقصى، وبنى القناطر التي على الدرج القبلي للصخرة(٣١). وفي سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩ م) بنى أحد الآبراج في المسجد الآقصى(٣٢)، ويعتبر المعظم عيسى الآيوبي أحد اثنين من الملوك والسلاطين الذين لهم اثار وأعمال جليلة بالقدس.

وفي العصر المملوكي اعتنى الظاهر بيبرس بعمارة المسجد الآقصى وقبة الصخرة، وعمر خانا للسبيل سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٣ م)، وبنى فيه طاحونا وفرنا، وأوقف عليه أوقافا كثيرة(٣٣). وقام السلطان المنصور قلاوون بتعمير سقف المسجد الآقصى من جهة القبلة، وبنى الرباط المنصوري في المدينة المقدسة(٣٤). وفي سنة ٢٩٥ هـ (١٢٩٦ م) جدد السلطان العادل كتبغا المنصوري عمارة السور الشرقي لبيت المقدس، وجدد فصوص قبة الصخرة(٣٥). أما السلطان الناصر محمد بن قلاوون فهو الثاني من السلاطين الذين لهم اثار وأعمال جليلة في البيت المقدس، فقد ذهّب القبتين، قبة الصخرة وقبة المسجد الآقصى، وعمر قناة للسبيل عند بركة السلطان خارج القدس، ورخّم صدر المسجد الآقصى، وعمّر السور القبلي والقناطر على الدرجتين الشماليتين بصحن الصخرة، وعمر باب القطانين، بالاضافة إلى أعمال أخرى عديدة(٣٦). وفي سنة ٧٦٩ هـ (١٣٦٧ م) بنى السلطان الآشرف شعبان المنارة التي عند باب الآسباط، وجدّد الآبواب الخشبية للمسجد الآقصى، وجدد عمارة القناطر التي على الدرجة الغربية في صحن الصخرة(٣٧). أما السلطان برقوق فقد بنى سنة ٧٨٩ هـ (١٣٨٧م) دكة للمؤذنين داخل قبة الصخرة، وعمر بركة السلطان خارج القدس من جهة الغرب سنة ٨٠١ هـ (١٣٩٨ م)، وأبطل بها عدة مكوس ومظالم(٣٨)، ونقش ذلك على رخامة ألصقها على باب الصخرة، وجدد القيسارية في القدس سنة ٧٨٨ هـ (١٣٨٦ م)(٣٩). ومن أعمال الآشرف برسباي في القدس اهتمامه بأوقاف المسجد الآقصى، وإهداؤه المصحف الشريف الكبير للمسجد الآقصى سنة ٨٣٠ هـ (١٤٢٦ م)، وتعيين القراء ليقرأوا فيه(٤٠). أما الملك الظاهر جقمق فقد عمّر سقف الصخرة بعدما أحرقت بسبب صاعقة، ووضع مصحفا كبيرا داخل قبة الصخرة ورتّب من يقرأ فيه، وأبطل عدة مظالم

(٢٧) مجير الدين الحنبلي، الانس الجليل، ج ١ ص ٣٨٣.
(٢٨) الآنس الجليل، ج ١ ص ٣٤٠ (٦) المصدر السابق، (٦) المصدر السابق، ج ١ ص ٣٤١.
(٢٩) الآنس الجليل ج ٢ ص ٢٧٠.
(٣٠) Van Berchem, Corpus inscriptionum, (Jerusalem ville) P. 171
(٣١) ابن فضل الله العمري، مسالك الابصار في ممالك الامصار، القاهرة، ١٩٢٤ م، ج ١ ص ١٤. الآنس الجليل، ج ١ ص ٤٠٣.
(٣٢) Van Berchem, OP. Cit. p. 132
(٣٣) الآنس الجليل، ج ٢ ص ٨٧، يوسف غوانمة، التاريخ السياسي لشرقي الآردن في عصر دولة المماليك الآولى، ص ٦١.
(٣٤) الآنس الجليل، ج ٢ ص ٨٩.
(٣٥) الآنس الجليل، ج ٢ ص ٩٠.
(٣٦) نفس المصدر، ص ٩١.
(٣٧) نفس المصدر، ج ٢ ص ٢٧٢.
(٣٨) نفس المصدر، ج ٢ ص ٩٤.
(٣٩) Van Berchem, oP. cit. P. 300
(٤٠) الآنس الجليل، ج ٢ ص ٩٦.

من القدس، وأثبت ذلك في رخامة داخل المسجد الأقصى(٤١). ومن حسنات الأشرف اينال المصحف الذي وضعه بالمسجد الأقصى، واهتمامه بالأوقاف وترميمه لأشياء كثيرة في المسجد الأقصى(٤٣). وأنشأ السلطان خشقدم القناة الموصلة إلى القدس من عين العروب، كما عمر البركة الشرقية، وبنى مدرسة بجوار باب السلسلة، ووضع مصحفا كبيرا في الصخرة وعين من يقرأ فيه، وألغى عدة مظالم من القدس(٤٤). وبنى السلطان الأشرف قايتباي المدرسة الأشرفية سنة ٨٨٧ هـ (١٤٨٢ م) بجوار باب السلسلة(٤٥)، وعمّر قناة العروب فوصلت المياه إلى القدس سنة ٨٨٨ هـ (١٤٨٣ م) بعد أن أنفق أموالا من أجل ذلك(٤٦)، وله أعمال أخرى كثيرة. أما قنصوه الغوري فقد ألغى عدة مظالم في القدس وأصدر مرسوما بذلك سنة ٩١٩ هـ (١٥١٣ م)، ونقشه على رخامة في المسجد الأقصى(٤٧).

هذا بالاضافة إلى الأعمال الكثيرة التي قام بها الأمراء والنواب في المدينةالمقدسة، فقد بنوا فيها المساجد والزوايا والأربطة والسبل والخانقاوات والمدارس والخانات والحمامات والقيساريات، والأسواق المتشعبة، وأوقفوا بعضها على المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وبعضها كالمدارس والزوايا والخانقاوات أوقفت عليها الأوقاف للنفقة على الطلاب والمقيمين فيها. حتى اننا نستطيع القول ان القدس الحالية هي قدس أيوبية مملوكية، لأن المنشات المعمارية والمؤسسات الثقافية والعلمية والاجتماعية، والمنشات المدنية والعسكرية الباقية إلى الآن كلها أيوبية مملوكية.

هذا الاهتمام بالمدينة المقدسة من قبل الخلفاء والملوك والسلاطين أخذ بعدا سياسيا اخر، فبعد تحرير القدس سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) جعل صلاح الدين الأيوبي من القدس ولاية تابعة لدمشق. وفي العصر المملوكي غيّر المماليك التنظيمات الادارية في بلاد الشام إلى (نيابات)، وظلت القدس (نيابة أو ولاية) صغيرة تابعة (لنيابة دمشق). ولكن السلطان الناصر محمد بن قلاوون ربطها بنيابة غزة، ثم أعادها إلى نيابة دمشق، وكانت التولية في معظم وظائف القدس تتم من قبل نائب دمشق(٤٧). وبقي الأمر كذلك حتى سنة ٧٩٦ هـ (١٣٩٣ م) عندما جعلها السلطان برقوق نيابة مستقلة وولى عليها الأمير (قردم الحسيني)، وجعلها مرتبطة بالقاهرة كغيرها من نيابات بلاد الشام(٤٨).

إن السبب الذي حمل السلطان برقوق على أن يجعل من القدس نيابة مستقلة يتمثل في الأخطار الخارجية التي ما فتئت تهدد المدينة المقدسة. ففكرة السيطرة على بيت المقدس ظل أملا يراود الفرنج طيلة العصر المملوكي، فبعد سقوط عكا قاموا بحصار اقتصادي ضد المماليك، كما شنوا الغارات المتكررة على سواحل مصر والشام لتحقيق هذه الغاية(٤٩). وأعنف هذه الغزوات غزوة بطرس لوز

(٤١) الأنس الجليل، ج ٢ ص ٩٧. Van Berchem. oP. cit. pp. 332 - 333
(٤٢) الأنس الجليل، ج ٢ ص ٩٩.
(٤٣) المصدر السابق ص ٩٩، ١٠٠
(٤٤) المصدر نفسه، ج ٢ ص ٣٢٨.
(٤٥) الأنس الجليل، ج ٣ ص ٣٣١.
(٤٦) Van Berchem, oP. cit. P. 358, 359 Ibid, P. 379
(٤٧) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤ ص ١٩٩.
(٤٨) المقريزي، السلوك، ج ٣ ق ٢ ص ٨١٣.
(٤٩) المقريزي، السلوك ج ٣ ق ٢ ص ٨١٣
أبو المحاسن النجوم الزاهرة، ج ١٢ ص ٥٢
Atiya, the crusade in the Late middle Ages, pp. 36-38

جنان سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) على مدينة الاسكندرية. وفي سنة ٧٦٩ هـ (١٣٦٧ م) هاجم الفرنج طرابلس الشام فدخلوا المدينة ونهبوا الاسواق وحملوا معهم الاسرى[٥٠]. وهكذا دخلت الدولة المملوكية حربا بحرية مع الفرنج، ناهيك الحصار الاقتصادي الذي أيده البابا وباركه، فقد أقيم تحالف بين التتار والغرب الاوروبي ومملكة أرمينية الصغرى والقوى الفرنجية في الشام وقبرص لهذه الغاية[٥١].

وقد أظهر المماليك تفهما كبيرا للخطرين الفرنجي والتتاري واستعدوا لذلك، فالظاهر بيبرس أقام خطا دفاعيا على الحدود الشرقية لدولته، وشحنه بالرجال والعتاد، وأحكمه بشبكة اتصال قوية تربطه بالقاهرة. كما أقام خطا دفاعيا اخر يمتد من الشوبك والكرك في جنوب الاردن إلى أعالي العاصي شمالا، كي يقف في وجه الخطرين التتاري والفرنجي معا. فالفرنج هددوا السواحل المصرية والشامية واجتاحوا مدنه وعطلوا حركة التجارة والاتصالات البحرية المملوكية، أما التتار فكانوا يعبرون الفرات في طريقهم إلى بلاد الشام والديار المصرية، ولكن سرعان ما تتصدى لهم القوات المملوكية فيعودوا القهقرى إلى بلادهم. وان كانوا قد وصلوا إلى غزة واجتاحوا دمشق بقيادة محمود غازان سنة ٦٩٩ هـ (١٢٩٩ م)، ثم اجتاحوها مرة أخرى سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠٠ م) بقيادة تيمورلنك وسفكوا دماء الكثيرين من سكانها وسكان المدن الفلسطينية الاخرى، ولكنهم لم يدخلوا بيت المقدس فسلم من عبثهم وتدميرهم.

إن الهدف الحقيقي من وراء الهجمات الفرنجية وتحالفهم وتعاونهم مع التتار إعادة سيطرتهم على فلسطين وبيت المقدس بالذات. فغزوة القبارصة للاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) كان غرضها الوصول إلى بيت المقدس عن طريق القاهرة. وبعدما فشل الفرنج حوّلوا نشاطهم نحو بلاد الشام، فهاجموا طرابلس ونهبوها، ثم هددوا بيت المقدس نفسه، فاجتاحت قواتهم يافا فرضة القدس على البحر المتوسط في سنة ٨١٣ هـ ((١٤١٠ م). ولم يقف الامر عند هذا الحد، بل تسللت قوات فرنجية إلى القدس نفسها عن طريق الحج، ولكنهم لم يستطيعوا تحقيق حلمهم القديم[٥٢]. ومن هنا جاء استحداث نيابة بيت المقدس، على رأسها أمير برتبة كبيرة، وتزويده بالرجال والعتاد للوقوف في وجه الخطر الفرنجي الذي ظل يهدد السواحل الشامية والمصرية معا.

وهكذا أصبح في فلسطين ثلاث نيابات : نيابة القدس، ونيابة غزة، ونيابة صفد. ويحاول بعض الباحثين الغربيين إثبات أن القدس لم تلق الاهتمام الكافي في العصر الاسلامي كبقية المدن الاخرى، بدليل أن القدس لم تكن عاصمة لدولة، أو مركزا لحكم. ولكننا نثبت عكس ذلك، فمدينة القدس كانت تتمتع بمكانة روحية لدى المسلمين، وكان الاهتمام بها كبيرا على مدى العصور، فبنوا المسجد الاقصى وقبة الصخرة أثرا خالدا ما زال حتى الوقت الحاضر. أما في العصر الايوبي والمملوكي فقد لقيت المدينة المقدسة العناية والرعاية، فمهرها السلاطين والامراء والاثرياء بالمنشآت العديدة، ثم جعل المماليك فيها نيابة مستقلة وعينوا فيها الامراء الكبار، وأصبحت «مركز حكم» كغيرها من المدن الهامة في بلاد الشام. بل فاقتها في الاهمية لمكانتها الروحية والدينية لدى الجميع، وتمكنت القدس من الوقوف بقوة وحزم في وجه الاخطار الفرنجية والتتارية معا.

---

(٥٠) المقريزي، السلوك، ج ٣ ق ١ ص ١٤٩

أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ١١ ص ٥٢.

(٥١) سعيد عاشور، الظاهر بيبرس، ص ٩٦.

(٥٢) يوسف غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، ص ١٨، ١٩.

هذا إذا هو الاهتمام على النطاق الرسمي فما هو الاهتمام الشعبي بالمدينة المقدسة؟. ظلت القدس مركز إشعاع حضاري طيلة العصور الاسلامية، ولم تفقد ذلك الدور إلا في فترة الاحتلال الفرنجي (١٠٩٩/٤٩٢ م ـ ١١٨٧/٥٨٣ م) أي مدة لا تتجاوز القرن من الزمان. وبعد التحرير عادت المدينة المقدسة تواصل رسالتها الدينية والانسانية والحضارية، باعتبارها مدينة للديانات السماوية الثلاث تمارس فيها شعائرها بحرية وتسامح إسلامي لم تشهده الديانات الاخرى في تاريخها. فأقيمت الخانات كخان الظاهر بيبرس خارج أسوار القدس (قرب باب العامود)، والزوايا والاربطة والخانقاوات لخدمة الزائرين للمدينة المقدسة وتقديم المأوى والمأكل لهم مجانا. حتى أن مضيفا أقيم في بلد الخليل كان يقدم يوميا خمسمائة وجبة طعام لكل الزائرين بغض النظر عن ديانتهم.

ولتعلق أهالي الشام بالمدينة المقدسة يلاحظ أنه في موسم حج كل عام يحتشد في المدينة المقدسة أعداد كبيرة من المسلمين للاحتفال بعيد الاضحى وزيارة المسجد الاقصى وقبة الصخرة والحرم الابراهيمي في الخليل، وكانوا من الكثرة بحيث يبلغ عددهم في بعض السنين عشرين ألفا[٥٣]. ونتيجة لهذا العدد الهائل من الزوار تنشط حركة التجارة الداخلية في أسواق القدس والخليل، ويعم الخير عليها وعلى المنطقة المجاورة فيهرع الاهالي للاتجار مع وفود الزائرين.

ولم يقتصر الامر على هذا الموسم (السياحة الداخلية) بل تجتمع في بيت المقدس أعداد أخرى كبيرة من النصارى واليهود لزيارة أماكنهم المقدسة، وللاحتفال بمواسمهم الدينية. فتقام لهم الاسواق الخاصة في يافا والرملة والقدس وبيت لحم تعود بالنفع على تجار تلك المدن والمتسببين من أهالي المناطق المجاورة. وكانت الدولة تعدّ لهم كل التسهيلات اللازمة، وتوفر لهم الادلاء السياحيين والتراجمة والحماية اللازمة.

ومن ناحية أخرى كان طلاب العلم من جميع أنحاء بلاد الشام والعالم الاسلامي يفدون إلى المدينة المقدسة لاخذ العلم عن أشياخها وفي مدارسها العديدة. ونبغ من القدس العديد من العلماء في شتى صنوف العلم والمعرفة وصنفوا المؤلفات المختلفة.

ثم إن الوجود العربي في المدينة المقدسة بقي مستمرا طيلة قرون عديدة، فقد لاحظنا من خلال عرضنا السابق أن القدس عربية الاسم والهوية، فهي مدينة يبوسية كنعانية، وعندما احتلها اليهود بقي الوجود العربي فيها ولم ينقطع. بينما كان الوجود اليهودي طارئا، فلاحظنا أن فترة حكمهم ووجودهم فيها كانت بسيطة فيما لو قورنت بالوجود العربي الذي استمر الاف السنين. فاليهود تعرضوا للسبي والاضطهاد من الشعوب والدول التي احتلت بلاد الشام من البابليين والاشوريين والفرس والاغريق ثم الرومان والبيزنطيين. وبلغ هذ الاضطهاد درجة إلغاء الديانة اليهودية منها، وتحريم سكنى اليهود في المدينة المقدسة، كان اخر ذلك ما فعله هرقل في أواخر الحكم البيزنطي لبلاد الشام. حتى ان معاهدة الصلح التي وقعها صفرنيوس مع الخليفة عمر بن الخطاب نصت صراحة «أن لا يسكن اليهود القدس».

---

(٥٣) ناصر خسرو، سفر نامة، ص ٥٥.

أما عن ديمغرافية القدس فقد بلغ سكانها الآوج في القرنين السابع والثامن الهجري (الثالث عشر والرابع عشر الميلادي) فبلغوا انذاك ٤٠٠٠٠ر٤٠ نسمة فكثافتها السكانية كانت ٥٦ شخصا للدونم الواحد، وهي أعلى كثافة سكانية وصلتها المدينة المقدسة في العصور الوسطى [٥٤]. وسبب ذلك الاستقرار والهدوء اللذان نعمت بهما المدينة المقدسة مغيرها من بلاد الشام مما جعلها تنعم بدرجة من الثروة والازدهار والآمن [٥٥]. ثم للآهمية الخاصة التي أولاها إياها السلاطين الايوبيون والمماليك فانعكس ذلك على كثافتها السكانية وهو أعلى رقم وصلته في تاريخها الوسيط.

وكان سكان القدس أخلاطا من مسلمين ونصارى ويهود، أما النصارى فكانوا يشكلون نسبة كبيرة زمن المقدسي (القرن الرابع الهجري)، وذكر أنهم كانوا أصحاب نفوذ في البيت المقدس[٥٦]. وذكر ناصر خسرو في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) عن وجود النصارى واليهود في بيت المقدس، أن أعدادا كبيرة منهم كانت تأتي من ديار الروم لزيارة الكنيسة والكنيش[٥٧]. وقد ازداد عدد السكان النصارى بعد الغزو الفرنجي لبلاد الشام واحتلال المدينة المقدسة، وقتل الفرنج الآلاف من سكان القدس المسلمين، قدرتهم المصادر الفرنجية بعشرين ألفا، فيما قدرت المصادر الاسلامية العدد بسبعين ألفا[٥٨]. بالاضافة إلى أن أعدادا من السكان العرب النصارى هجروا القدس، فلويم الصوري يقول : ان مواطني المدينة من السوريين (السريان) كانوا في تناقص نتيجة للمحن والمصائب، حتى أن عددهم لم يكن شيئا في المدينة[٥٩]. وشجع الفرنج هجرة النصارى الوطنيين إلى القدس، فتذكر المصادر أن قسما من نصارى شرقي الآردن في وادي موسى والبلقاء وعمان نزحوا إلى القدس، بعد أن طلب الفرنج منهم ذلك بالاغراء والاكراه ووعدوهم بحياة أفضل، واستقبلوهم مع زوجاتهم وأولادهم وقطعانهم[٦٠]. وخصص لهم حي عرف «بمحلة المشارقة» لآنهم قدموا من منطقة البلقاء الواقعة شرقي القدس. وبعد تحرير بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) عاد السكان المسلمون إلى القدس فزادت نسبتهم في العصر الآيوبي ومن ثم في العصر المملوكي، فأصبحوا يشكلون نسبة ٧٠ ـ ٨٠٪ من السكان[٦١].

ونصارى بيت المقدس كانوا في معظمهم من أصل عربي، بجانب عدد من نصارى الفرنج من دول أوروبا المختلفة والآحباش[٦٢]. أما أهم الطوائف المسيحية التي وجدت في القدس في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) فهي : اللاتين والسوريون (السريان) والمقصود بهم طائفة اليعاقبة، والآرمن، واليونان (الارثوذكس) والنساطرة، والهنود، والآحباش، والجيورجيون[٦٣]. وقدر

---

(٥٤) يوسف غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص ١١٥.

(٥٥) Lapidus, P. 16

(٥٦) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٦٧.

(٥٧) ناصر خسرو، سفر نامة، ص ٥٥.

(٥٨) ابن الآثير، الكامل، ج ٨ ص ١٩٨

Fulcher of chartres, A History of the expedition to Jerusalem, New York, 1973, P. 12.

(٥٩) William of Tyre, oP. cit. P. 507

(٦٠) Ibid, P. 507 Rey, les colonices, P. 77

(٦١) Benvemisti, P. 215

(٦٢) ناصر خسرو، ص ٧٠، ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج ١ ص ٣٩، ج ٢ ص ٥.

(٦٣) Rey, oP. cit. PP. 76-77

الرحالة فيلكس فابري عدد النصارى في القدس سنة ٨٨٨ هـ (١٤٨٣ م) بألف شخص[٦٤]. وعومل النصارى في القدس معاملة حسنة فمارسوا طقوسهم الدينية في حرية تامة، وكان السلاطين المماليك يصدرون المراسيم التي تدعو إلى رعايتهم والعناية بهم[٦٥].

أما الوجود اليهودي في القدس في العصر الاسلامي فكان قليلا، فقد لاحظنا أن معاهدة الصلح نصت صراحة أن لا يسكنوا في المدينة المقدسة، ومع ذلك تسللوا إلى القدس عن طريق الخدمة في المسجد الأقصى، فكانوا يقومون بكنس أوساخ الناس في المواسم والصيف، وكنس المطاهر التي حول المسجد. بالاضافة إلى أن قسما منهم تخصص في عمل زجاج قناديل المسجد الأقصى وإضاءتها، وبلغوا زهاء عشرين شخصا[٦٦]، أعفوا من الجزية، ولكن الخليفة عمر بن عبد العزيز أنهى هذا الوجود اليهودي في المدينة المقدسة، فاستغنى عن خدماتهم[٦٧].

ثم عاد اليهود إلى القدس في العصور الاسلامية اللاحقة، فوجد عدد منهم في القرنين الرابع والخامس الهجري (العاشر والحادي عشر الميلادي). كما وجد فيها كنيس (كنيش) وكان اليهود يأتون لزيارة بيت المقدس من أنحاء متفرقة من العالم[٦٨]. وسكنوا في حارة خاصة أطلقوا عليها «حارة اليهود»[٦٩]. وفي فترة الاحتلال الفرنجي لبيت المقدس تعرض اليهود لتعسف الفرنج فهجروا بيت المقدس ومعظم أنحاء فلسطين[٧٠]. وامتد تعسف الفرنج لمقابر اليهود، فدمروا مقابرهم الثلاث، واستخدموا حجارتهم في بناء بيوتهم[٧١]. وفي منتصف القرن الساس الهجري (الثاني عشر الميلادي) قدم الرحالة بنيامين اليهودي الأندلسي Benjamin of Tudelu إلى فلسطين، وزار معظم مدنها وقدم لنا إحصائية ديمغرافية لليهود. فوجد في بيت جبريل ثلاثة يهود، و ١٢ يهوديا في بيت لحم، وفي الرملة ٣ يهود، وفي يافا يهوديا واحدا، وعسقلان ٢٠٠ يهودي، وفي طبرية ٥٠ يهوديا، أما بيت المقدس ونابلس فلم يجد فيهما يهوديا واحدا. وكانت دمشق انذاك تمثل أكبر تجمع يهودي في بلاد الشام، فوجد فيها ٣٠٠٠ يهودي[٧٢]. ثم بدأ اليهود يتسللون إلى المدينة المقدسة بعد تحريرها من الفرنج، وزاد عددهم في العصر المملوكي، وامتهنوا التجارة والصياغة والدباغة كعادتهم[٧٣]، حتى أصبحوا في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) زهاء ٥٠٠ يهودي فقط[٧٤]. وهو عدد ضئيل إذا ما قورن بسكان المدينة المقدسة الذين بلغوا في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ٨٠٠٠ نسمة، وكانت الديمغرافية في القدس قد تعرضت إلى تغييرات في كثافتها نتيجة عوامل عديدة منها المجازر التي ارتكبها الفرنج في القدس في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر

(٦٤) نقولا زيادة، فيلكس فابري في فلسطين، بحث في مؤتمر بلاد الشام، عمان ١٩٨٠ ص ٩

(٦٥) يوسف غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص ١٢١، ١٢٢.

(٦٦) المنهاجي السيوطي، اتحاف الاخصا بفضائل المسجد الأقصى، مخطوط جامعة برنستون لوحة ٦١ ب، ٦٢ أ.

(٦٧) المنهاجي السيوطي، المصدر السابق، لوحة ٦٢ أ.

(٦٨) ناصر خسرو سفر نامة، ص ٥٥.

(٦٩) الأنس الجليل، ج ٢ ص ٥٢؛ ٥٦.

(٧٠) Martin, The Crusades, P. 127

(٧١) Benjamin, Early Travels in palestine, p. 81, 82, 84

(٧٢) Ibid, P. 91

(٧٣) Ibid, PP. 85-87

(٧٤) يوسف غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص ١٢٣.

الميلادي)، والطواعين والأوبئة التي ضربت المدينة منذ منتصف القرن الرابع عشر حتى القرن السادس عشر الميلادي وأدت إلى هذا التغيير في عدد السكان. فبلغ عدد سكان القدس في العصر المملوكي ٤٠٠٠٠ر٤٠ نسمة وهو أعلى رقم وصلته في تاريخها الوسيط ثم أخذ في الهبوط. ففي القرن ٨ هـ (١٤ م) بلغ ٠٠٠ر٢٠ نسمة. وفي منتصف القرن ٩ هـ (١٥ م) بلغ ٠٠٠ر٨ نسمة. وفي أواخر القرن ٩ هـ (أواخر ١٥ م) بلغ ٠٠٠ر٣ نسمة. ثم ارتفع في منتصف القرن ١٠ هـ (١٦ م) فبلغ ٠٠٠ر٨ نسمة.

والخلاصة أنه لم يكن الهدف من هذه الدراسة إثبات عروبة القدس، فالقدس عربية الاسم والهوية والأصل. والعرب هم سكانها وبناتها منذ أقدم العصور. وذكرتها النصوص القديمة باسمها اليبوسي (أو شاميم)، كما ورد في وثيقة فرعونية تعود للقرن التاسع عشر قبل الميلاد. فاليهود احتلوا القدس من اليبوسيين في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، واستقروا فيها لفترة محدودة من الزمن، ولكن هذا الوجود لم يكن مستمرا أو متصلا. فقد تعرضوا إلى السبي والنفي والابعاد من المدينة المقدسة لفترات طويلة كان اخرها في العصر الروماني والبيزنطي والفرنجي. فالوجود اليهودي في القدس كان طارئا ولفترة قصيرة إذا ما قيست بالقرون الطويلة من تاريخها، لذلك لم يكن لهم وجود ديمغرافي مؤثر ولم يقدموا شيئا حضاريا للمدينة المقدسة. فاليهود عندما استقروا في فلسطين، وجدوا الكنعانيين شعبا متحضرا له حضارته وعاداته وتقاليده ولغته ومعطياته الحضارية. أما اليهود فكانوا بداة لا حضارة لديهم، فتأثروا بالشعب الأكثر حضارة وأخذوا منه كل معطياته الحضارية والمدنية، حتى أن اللغة العبرية في معظمها كنعانية. ولم يخلف اليهود أي أثر ذا قيمة في المدينة المقدسة، فالهيكل الذي يزعمون أنهم بنوه في القدس لم يعد له أثر ولم يستطع الآثاريون تحديد مكانه.

إن الوجود العربي في القدس كما أوضحنا كان مستمرا طيلة العصور وحتى في فترة الاحتلال الفرنجي لها، ثم ان المخلفات الحضارية في القدس كانت وما زالت عربية تتمثل في كل جانب وحي من القدس. بل انها أصبحت في العصر الاسلامي بؤرة إشعاع علمي وثقافي وحضاري يؤمها طلاب العلم والمعرفة من جميع أنحاء العالم الاسلامي، وفيها تأسست أول مدرسة في الاسلام بالمفهوم الذي عرفت به المدرسة فيما بعد.

ويحاول الباحثون اليهود الادعاء بوجودهم في القدس لذا نلاحظ أنهم يكتبون عن الفترة القديمة التي كونوا فيها مملكة يهوذا في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، ثم ينتقلون فجأة إلى العصر الحديث متناسين ومتجاهلين العصور الأخرى من تاريخ القدس وبالأخص الفترة العربية الاسلامية الممتدة من القرن السابع الميلادي حتى الوقت الحاضر فالوجود العربي لمدة أربعة عشر قرنا حيث أولاها خلفاؤهم وسلاطينهم اهتماما خاصا ومهروها بالعديد من المنشات العمرانية التي ما زالت باقية إلى الآن واليهود يعملون على طمسها وتجاهلها. وهم في ذلك يحاولون تزوير التاريخ وإخفاء الحقائق، ولكي يحققوا هذا الهدف تراهم يسعون الآن إلى هدم كل هذه المنشات العربية الاسلامية، ومن ثم إعادة تخطيط وتنظيم القدس حتى يزيلوا السمة العربية عنها وينهوا عروبتها. وقد تنبه الباحثون العرب والمؤسسات العلمية العالمية لذلك، فاتخذت منظمة اليونسكو قرارا بجعل القدس تراثا إنسانيا عالميا لا يحق لأي كان تغيير ملامحه أو إزالته، وعلى الانسانية جمعاء الحفاظ على هذا التراث، وهو تراث عربي إسلامي خالص. إن عروبة القدس لا جدال فيها ولا تحتاج إلى برهان، وإن كنا قد كتبنا هذا البحث في عروبة القدس فلكي نوجه القارىء والباحث إلى الحقائق التاريخية الثابتة.